المحاضرة الثالثة عشر: غادامير و التأويل

لم تكن هناك صلة تذكر بين غادامير والفلسفة إبان نشأته, فوالده يوهانس غادامير كان أستاذاً للكيمياء الحيوية في جامعة بريسلا, وكان ينظر إلى الفلسفة والعلوم الإنسانية نظرة ازدراء, ويرى أن المشتغلين بالفلسفة كمثل المشتغلين بالثرثرة, وأن المنهج الوحيد لمعرفة الحقيقة هو منهج العلوم الطبيعية والرياضية, غير أن الابن كان عكس ذلك إذ يشدد على أهمية الفكر والنقد في حياة الإنسان, ويثق بدور الفلسفة في بلورة أسئلة الوجود والعلم ذاته, ذلك أنه ظلّ يؤكد أن المعارف العلمية لا تتقدم خارج النقد الفلسفي الذي يرسم لها حدودها ويحلل محصلاتها, ويكشف عن إمكانات تقدمها والتطور في القوانين التي تبنيها حول الظواهر والأشياء, ولعل هذا ما كان فيما بعد وراء انضمامه إلى حلقة الكانطيين الجدد الذين كانوا بمنزلة تيار ابستيمولوجي مستحدث في نقد العلوم والفلسفة ذاتها.

وقد اشتد الغضب بأب الفيلسوف غادامير إبان التحاقه بالجامعة واختياره دراسة الفلسفة في مدينة بريسلا, وذلك بعد أن أتم سنة 1918 فترة التلمذة بمدرسة (الروح القدس), وتنقل في السنوات الثلاث التالية لذلك بين جامعتي ماربورج وميونيخ وهي الفترة ذاتها التي تأثر فيها بالكانطيين الجدد, وهكذا إلى أن أعد في سنة 1922 رسالة الدكتوراه التي كان محورها (لذة المعرفة في محاورات أفلاطون.(

وفي سنة 1923 التقى غادامير بادموندهوسرل ومارتن هيدجر, وواظب على حضور محاضراتهما في جامعة فرايبورج وأمام اقتناعه بفلسفة هيدجر في هذه الفترة بدأ في التخلي عن مناصرته للكانطيين الجدد.

وفي سنة 1924 بدأ غادامير في دراسة علم اللغة الكلاسيكي من خلال تصوره دروس باول فرويد ليندر, وبعد إعداده لرسالة علمية عن أفلاطون بإشراف هيدجر وأستاذه في علم اللغة الكلاسيكي عيّن أستاذا للفلسفة في جامعة ماربورج .

وفي سنة 1946 قدم غادامير إلى جامعة ليبزج ثم التحق بجامعة فرانكفورت إلى جانب هوركها يمروأدورنو وهناك كانت له خلافات واعتراضات كثيرة على المنطلقات النظرية للنزعة النقدية الفلسفية التي نظرت لها مدرسة فرانكفورت, وهكذا إلى أن

استقر به المطاف بجامعة هايدلبرج لكي يشغل كرسي الفلسفة خلفاً لكارل ياسبرز.

وكانت سنة 1950 مرحلة حاسمة في مسار فلسفة غادامير وبداية عهد جديد لتنظير هذه الفلسفة, إذ إنه بعد أن أشرف على إصدار كتاب تذكاري بمناسبة عيد ميلاد هيدجر الستين أقدم على تأليف عمل في تجديد فلسفة التأويل وبحث أدواتها ومنطلقاتها. وبعد سنين عشر صدر كتاب غادامير (الحقيقة والمنهج: مبادئ فلسفة التأويل) وقد مثل هذا الكتاب حدثاً استثنائياً, لاسيما أن غادامير منذ إعداده رسالته الجامعية لم يكتب أي تأليف وإلى حدود بلوغه سن الستين تاريخ صدور هذا الكتاب.

غادامير... والتأويل

إن طرح مشكلة الحقيقة في نظر غادامير وبحث الأطروحات التي ألفت في ذلك يقود في مداه الأقصى إلى بحث مسألة اللغة التي بدورها تحيلنا إلى النص, والنص من حيث هو بنية من الرموز والمعاني والقيم يحيلنا إلى القارئ الذي هو مئوّل بمعنى من المعاني, وبالتالي عليه أن يمارس الفهم بما هو منهج وفلسفة في الآن ذاته. والتأويل لا يستقيم إلا باعتبار معانيه الثلاثة الوجودية والجمالية والمعرفية الفلسفية, وقد أخرج غادامير هذا التأويل من دائرة العلم بالمفهوم الأكاديمي الضيق ليربط بينه وبين التجربة الكليّة التي يكوّنها الإنسان عن العالم ويخوضها من خلال الوجود والفن والمعرفة, وهنا يصبح رهان الحقيقة يشترط تحديد المفاهيم والمنطلقات التي تلقي بنا في أعماق هذه الحقيقة, وتجعلنا نحيط بجوهر الأثر الفني وحقيقة جمالياته بعيداً عن السطحية والآنية ولتحصيل هذا المقصد يرى غادامير أنه من الضروري تجاوز الأدبيات الكلاسيكية التي تراكمت منذ الإغريق إلى عصرنا هذا مع شلايرماخر ودليتاري وأعلام مدرسة فرانكفورت وكذلك مناهج القراءة التي بلورتها مدارس النقد الفرنسي, باتجاه يقطع مع تفسير النص وشرحه إلى السعي في سبيل فهمه, والفهم في نظر غادامير ليس مجرد بناء تصوّرات حول النص بقدر ما هو سؤال جوهري يستقطب كل أسئلة الوجود والفن والمعرفة, كما هو ليس وظيفة معرفية أو أدبية لغوية أو نفسية سوسيولوجية. إن القناة التي تنبني عليها ومن خلالها علاقة الكائن بالكينونة ضمن أفق السؤال والتساؤل المستمرّ, وطلب الفهم لا يعني عند غادامير طلب اليقين, بل هو إعادة صياغة لسؤال الوجود والمعنى, ووضع كل يقين وكل معرفة موضع سؤال بعيداً عن اللاأدرية أو الشك من أجل الشك أو العدمية

المغلقة على ذاتها, ولذلك راهن غادامير على (التأويلية) التي اشتغل على تنظيرها في اتجاهات مختلفة حتى يتحرر كليّاً ممّا يمكن أن يذكرنا بدلالة المصطلح الفلسفي التقليدي الذي يحصر الفلسفة في تحصيل المعرفة والبحث عن الحقيقة, فلقد وعى غادامير أهميّة تخليص سؤال الوجود ومنهج الفهم من التجريدات العامّة التي استمرّت حتى مع النسق الهيدجري, فأراد أن يتخذ من التأويل منهجاً فلسفياً جديداً لا يتأسس فحسب على تطوير إجراءات الفهم والنقد المزدوج للعلوم الإنسانية والفلسفية, بل يتجاوز ذلك إلى تفسير الشروط التي تتيح الفهم إلى حد يتضح معه المعنى الأصلي المفترض الذي أنتج النص للتعبير عنه, وقد اختار الثقافة في تمظهراتها الكتابية الكبرى (الفن والفلسفة واللاهوت والأدب) وسيطا للفهم, أو بالأحرى مجالاً لإعادة تأسيس مستمرّة لعلاقة الكائن بالكينونة والإنسان بالحقيقة. واتخذ من اللغة دليلاً للفهم. وبالتالي نقل اللغة من كونها موطن الكينونة والوجود عند هيدجر إلى مجال الفهم ذاته, باعتبارها هي عمل الفهم وقاعدته الأساسية التي تكشف عن الأصل والأساس والمنطلق المرجعي لكل مكتوب أو مفكر فيه أو متخيل جمالي, ومن ثم يكون التأويل فهماً للفهم ذاته, وإعادة تأمل لجماليات الفنون في ضوء كل نتاج منهجي في الفلسفة والعلوم الإنسانية وفي مجال اللسانيات التي وظّفها من موقفه كفيلسوف في تجاوز التصوّر القائل إن اللغة أداة تعبير ومخزن للثقافة والفنون ليجعل منها قاعدة للفهم ومنطلقاً له, من حيث هو فن سؤال ووعي بالوجود والفن لا حدّ له.